

البعد الصوفي في الفنون الإسلامية: فن العمارة نموذجاً

*The sufi dimension in islamic arts architecture as a model*بن ناصر هناء*¹، بن سماعيل موسى²¹ مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة 1 (الجزائر)، hana.benacer@univ-batna.dz² مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة 1 (الجزائر)، moussa.bensmaine@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2025/07/30 تاريخ القبول: 2026/01/15 تاريخ النشر: 2026/04/12

ملخص: تهدف هذه الدراسة لمعالجة إشكالية أهم الفنون التي عرفتها الحضارة الإسلامية، التي يعتبر فيها الفن من أبرز مظاهر الإبداع الإنساني، بما تركه من بصمات واضحة على مر الحضارات فهو ليس مجرد أعمال فنية؛ بل هو انعكاس لحضارة غنية ومتنوعة. لقد كانت هذه الدراسة محاولة للجمع بين كل من التصوف والفن، وإن بدا منفصلين، فلكل منهما نقاط تقاطع يشتركان فيها، فكلاهما يعبر عن تجربة روحية، لذلك كانت دراستنا هذه رحلة لتقصي والبحث عن العلاقة الوطيدة بينهما، محاولين استنباط أوجه التشابه ونقاط التلاقي بينهما، وكيف أثر وتأثر كلاهما في بعضهما البعض، كونهما يعبران عن تجربة روحية قائمة على العاطفة، وبالتالي فإن النتائج المتوصل إليها في هذا البحث، أن أهم الفنون التي نلتبس فيها العلاقة بين كل من التصوف والفن نجدها في الفنون الأدبية كالشعر، وفن العمارة والزخرفة والخط العربي، بحيث عرفت ثراء وفيرا وأصبحت مظهر من مظاهر الشعائر الإسلامية الروحية، وبرع الفنان المسلم في تشكيلها وجعلها من خصوصيات الحضارة الإسلامية. واقتصرت دراستنا هذه على العماير الإسلامية لأننا عملنا على إبراز العلاقة بينها وبين التصوف في مختلف الأعمال الفنية التي تميزت بجماليتها وخصوصيتها.

كلمات مفتاحية: التصوف، الفن الإسلامي، العمارة الإسلامية، الزخرفة، الزاوية.

Abstract: This study aims to address the problematic of the most important arts known to the Islamic civilization, in which art is considered one of the most prominent manifestations of human creativity, because of its clear imprints over the course of civilizations, it is not just works of art; it is a reflection of a rich and diverse civilization. This study was an attempt to combine both mysticism and art, even if it seems separate, they have common intersection points, they both express a spiritual experience, so our study was a journey to investigate and search for the close relationship between them, trying to derive similarities and points of convergence between them, and how both influenced and influenced each other, as they express a spiritual experience based on the Muslim artist excelled in shaping them and made them one of the peculiarities of Islamic civilization, and our study was limited to Islamic architecture because we worked to highlight the relationship between it and mysticism in various works of art that were distinguished by their beauty and specificity.

Keywords: islamic ,art; islamic architecture; décoration; the corner

1. مقدمة :

تعد الحضارة الإسلامية من أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ الإنساني بما قدمته من إسهامات فكرية وعلمية وفنية أثرت في المسار الإنساني عبر العصور، بحيث تمثل أحد أبرز التجليات التاريخية لالتقاء الدين بالثقافة، والروح بالعقل، والمقدس بالجمال، هذه الحضارة كانت مشروع حضاري شامل احتضن ثقافات متعددة مما جعلت منه كيان مميز بأصالته الفكرية وتنوعه الثقافي، من أبرز ملامح هذه الحضارة التي لا تزال شاهدة إلى اليوم هو الفن الإسلامي الذي لم يكن مجرد وسيلة للتزين أو الترف وإنما كان تعبير عميق عن الرؤية الإسلامية للعالم.

يعتبر الفن الإسلامي من أدق وسائل التعبير في الحضارة الإسلامية، فقد اتخذ هذا الفن طابعا خاصا يستمد روحه من جوهر العقيدة الإسلامية، فقد شهد العالم الإسلامي تنوعا ثقافيا قد بلغ ذروته من حيث المضمون والموضوع، وتعددت أساليبه وأدواته من مشرقه إلى مغربه، بحيث تجلى في الشعر والزخرفة والخط العربي وفن العمارة وفيه تتجلى عظمة الحضارة الإسلامية من خلال تصاميم المساجد والقصور والزوايا، لم يكن الشكل المعماري غاية في ذاته بقدر ما كان وسيلة للتعبير عن القيم الروحية للمجتمع الإسلامي، وهذا ما جعل هذا الفن روحيا أكثر، غاياته بناء رؤية فنية تنسجم مع المفاهيم الإسلامية.

من بين التيارات الفكرية والدينية التي تجسد هذا الوعي الجمالي في الإسلام، يبرز التصوف باعتباره لب الحضارة الإسلامية فالتصوف بوصفه تجربة وجودية عميقة ترى في الجمال تجلي من تجليات الحقيقة الإلهية، فنجد تداخلا كبير بين التصوف باعتباره تجربة روحية والفن باعتباره تجربة معنوية.

وعلى هذا الأساس، فإن الإشكالات المحورية لهذا البحث يتمثل في:

ماهي الفنون التي عرفتها الحضارة الإسلامية وكان للبعد الصوفي حضورا فيها؟

وتتضمن تحت هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية:

1. هل يمكن الربط بين الأفكار الصوفية والخبرات الفنية؟

2. من الناحية الفنية ماهي أهم الفنون التي أثرت وتأثرت بالتصوف؟

3. من الناحية المعمارية ماهي أهم العناصر التي حملت طابع التصوف والتي ميزت

الحضارة الإسلامية؟

هذه الإشكالية والتساؤلات لابد من الإجابة عليها في هذا المقال معتمدين على المنهج التاريخي الوصفي، وذلك في وصف الأحداث التاريخية التي مرت بها الفنون الإسلامية، والتحليلي لتحليل أهم

الفنون الإسلامية وربطها بالتصوف، أما أهمية البحث في هذا الموضوع تتجلى فالتقصي عن البعد الصوفي داخل الفنون الإسلامية، لأن الفن الإسلامي ليس مجرد فن وظيفي وإنما في جوهره يعبر عن بعد روعي نابع من الرؤية الإسلامية وضمن هذا المسعى اخترنا هذا البحث.

وعلى هذا الأساس فإن الهدف من هذه الدراسة هو:

_ إبراز تأثير الرؤية الصوفية على التعبير الفني الإسلامي في مختلف تجلياته.

_ إظهار أن الفن في الحضارة الإسلامية هو وسيلة للتعبير عن مكانته الباطنية وخاصة ما تعلق

منها بفنون العمارة والزخرفة.

2. الفن الإسلامي وعلاقته بالتصوف

1.2 أصل ونشأة الفن الإسلامي:

عندما نتحدث عن أي جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، فإننا نعود إلى أصل قيامها وهو القرآن الكريم، فالثقافة الإسلامية هي ثقافة قرآنية، ومن دون الدين الإسلامي والقرآن الكريم لما وجدت دولة إسلامية ولا مجتمع إسلامي ولا فن إسلامي.

قبل الحديث عن مصدر ونشأة الفن الإسلامي، لابد أن نعرف أولاً كيف سمي الفن الإسلامي بهذا الاسم، فقد عرف عدة مسميات غير جامعة¹ في البدايات خاصة عند الغرب البعض سماه الفن الشرقي SARACENIC ART لكن هذا الاسم يصح أن نطلقه على الفنون الإسلامية التي عرفت في بلاد العرب والشام والعراق وربما مصر وصقلية والأندلس، لكنه لا يصح أن نطلقه على الفنون الإسلامية في إيران وتركيا والعراق.

وسماه آخرون MOORISH ART ولكن هذا الاسم يصح أن نطلقه على الفنون الإسلامية التي ازدهرت في الأندلس ومراكش والجزائر وتونس، بينما سماه فريق آخر بالفن العربي؛ ولكن هي الأخرى تسمية غير متفق عليها وذلك أنها غير شاملة لإيران والعراق وتركيا والتي لها الفضل في ازدهار الفن الإسلامي.

ويذهب فريق من الأوروبيين لإطلاق مسمى الفن المحمدي MUHAMMDEN ART ولكن المسلمين يرفضون هذه التسمية، لأنها تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس له أي علاقة بمكانة الرسول الدينية، والحقيقة أن مثل هذه التسمية، تعتبر ثقيلة على أسماعنا، أيضاً أطلق عليه الفن سارسينيك SARACENIC ART وهو مصطلح صاغه المؤرخ لين بولز LANE POOLES ولكن هذه التسمية نادرة²

وبالتي فربي ثانوية الاستخدام، إذن فالتسمية الأحق هي الفن الإسلامي، لأن الإسلام هو حلقة وصل بين كل هذه الأمم، وكون هذه الفنون قد ازدهرت في ظل الإسلام ودول إسلامية.

بعد التطرق لأهم المسميات التي عرفها الفن الإسلامي لابد من الحديث عن نشأته وبداياته، هذه المسألة عرفت تضارب في الآراء، هناك من يرى أن العرب قد كانت لهم فنون قبل دخول الإسلام وخاصة في الفنون الأدبية كالشعر والنثر وغيره، إلا أن هناك رأي غالب بأن العرب لم تكن لهم فنون أو أساليب فنية ناضجة قبل الإسلام، إلا في بعض الممالك التي اتصلت بالأمم الأجنبية، وتأثرت بأساليبها الفنية، فأى عنصر في من تحف وعمائر في بداية العصر الإسلامي فإنها تنسب إلى شعوب أخرى كالفرس والمسيحية في الشرق الأدنى، ثم البربر والترك والهنود، أما نصيب العرب من ذلك كان جمعهم شتى الفنون القديمة وإنشاء فن إسلامي متميز عن غيره من الفنون. وقد قيل في ذلك: "قام الفن الإسلامي على أسس من الفنون المسيحية الشرقية في مصر والشام ومن الفنون الإيرانية القديمة في بلاد الجزيرة وهضبة إيران، ومن الأساليب الفنية التي نشأت من التقاء الفنون الإيرانية والهلينية والهندية في إقليم بكتريا منذ فتوحات الاسكندر ومن الأساليب العينة في التركستان، وما يتصل بها من أقاليم آسيا الوسطى".³

عندما نقول أن الفن الإسلامي قد تأثر بالفنون الأجنبية فهذا لا يعني أنه لا يوجد فن إسلامي خالص وإنما هو فن يأثر ويتأثر بالفنون الأخرى، ونستطيع بوجه عام أن نقول: "ان الفن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة كان يسوده الطراز الأموي أولاً، ثم الطراز العباسي بعد سقوط بني أمية سنة 750 هـ، ولما ضعفت الدولة العباسية في القرن الثالث للهجرة وخلفت دويلات وامارات مستقلة في الأقاليم الإسلامية المختلفة، قامت على أنقاض الطراز العباسي أساليب فنية محلية يمكن تميز كل منها ولاسيما في ميدان العمارة لأن منتجات الفنون الفرعية كان من السهل نقلها من إقليم إلى آخر والتأثر بالأساليب الفنية فيها".⁴

فقد ظهر الفن الإسلامي في عصر بني أمية، حيث يعتبر الطراز الأموي الذي ينسب إليهم أول نمط أو مدرسة في الفن الإسلامي، وقد اختاروا مدينة دمشق لتكون عاصمة للعالم الإسلامي، وكانت السيادة الفنية للطراز الأموي بيد السوريين، وقد تأثر بالفنون المسيحية في الشرق الأدنى، ومن الأبنية التي تنسب إلى الأمويين قبة الصخرة التي تقع في وسط الحرم الشريف ببית المقدس، ثم الجامع الأموي بدمشق، وبعض القصور التي بناها الخلفاء في بادية الشام كقصير عمري، وقصر المشتى، وقصر الطوبة.

مما أفسح المجال لظهور الطراز العباسي، ولما ألفت الخلافة إلى العباسيين سنة 132 هـ، نقل مقر الحكم إلى العراق وأصبحت السيادة لإيران والعراق وأصبح الطراز العباسي، يغلب عليه الأساليب الفنية

الفارسية، كما غلب الطابع الفارسي على الأدب والحياة الاجتماعية وشيدت هنا مدينة بغداد على نهر دجلة،

لما فتح الفاطميون مصر جعلوها مقرا لخلافتهم وقام على يدهم الطراز الفاطمي وازدهر في مصر والشام، وكان حكم الدولة الأيوبية في مصر، عصر انتقال من الطراز الفاطمي إلى الطراز المملوكي، والذي ازدهر في مصر والشام بين القرنين السابع والعاشر بعد الهجرة، وهو الطراز الذي تدين له القاهرة بمعظم آثارها الإسلامية بعد استلاء العثمانيين على دولة المماليك وقد عرفت هنا ركود فني، أما في الأندلس فقد ازدهر الطراز الأموي المغربي أتيح للأندلس والمغرب، أن يتحدا تحت حكم دولة واحدة وهي دولة المرابطين وهم أسرة من المسلمين البربر.

إن ما ذكرناه غالبا ما يقصد به بدايات فن العمارة، لكن للفن الأدبي وخاصة الشعر راي آخر، فإذا افترضنا أن الشعر الصوفي قد ظهر في أوائل القرن الثاني للهجرة على يدي حسن البصري وتلامذته من بعده فإننا نقسمه إلى مراحل زمنية متعاقبة:⁵

المرحلة الأولى وتشمل القرن الثاني للهجرة وفيها كان يكون الشعر الصوفي نفسه بنفسه من شعراء هذه المرحلة رابعة العدوية 100 180 هـ، أما المرحلة الثانية وتشمل القرنين الثالث والرابع للهجرة وقد كان الشعر الصوفي هنا في مرحلة تطور وازدهار، من شعراء هذه المرحلة أبو حمز الخراساني وفيها ظهر شعراء العرب كالمتنبي والشريف الرضي وسواهما، في المرحلة الثالثة وتشمل القرنين الخامس والسادس للهجرة وفيها يتجه الأدب الصوفي إلى الحب الإلهي ومدح الرسول بحيث يدعو إلى الفضائل الإسلامية من شعراء هذه المرحلة السهروردي الشامي الرفاعي وعبد القادر الجيلاني، المرحلة الرابعة وتشمل القرن السابع للهجرة وفيها بلغ الشعر الصوفي نهضته من بين الشعراء نذكر ابن الفارض، جلال الدين الرومي، ابن عربي والمرحلة الخامسة والأخيرة تمتد من القرن الثامن للهجرة إلى غاية اليوم ومن أشهر أعلام التصوف فيه الشعراني والناقليسي..

وعليه فإن نشأة الفن الإسلامي كان قد تأثر بالحضارات السابقة، لكن مع نزول الوحي الإسلامي فقد أعاد الفنان المسلم تشكيل هذه الفنون في سياق ديني وروحي جديد فالعمارة الإسلامية عملت على تجسيد قدسية المكان وخصوصيته، والشعر عمل على التعبير عن المشاعر والدين والفكر بأساليب دينية.

2.2 علاقة التصوف بالفن:

قبل الحديث عن علاقة التصوف بالفن فالأرجح أن نتحدث عن علاقة الفن بالدين الإسلامي والقرآن الكريم، والنظر إليه من وجهة إسلامية قبل الصوفية، في هذه النقطة أخذنا رؤية الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي في مؤلفه أطلس الحضارة الإسلامية، يقول: "يمكن النظر إلى الفنون الإسلامية على أنها تعبيرات قرآنية في اللون والخط والحركة والشكل والصوت... ثمة مستويات ثلاثة يقوم عليها مثل هذا التفسير المستوى الأول التوحيد، المستوى الثاني القرآن، باعتباره مثال في، والمستوى الثالث القرآن مثالا للتصوير الفني الدقيق."⁶

بالنسبة للمستوى الأول، يقصد به أن الفن من شأنه تقوية الوعي بالكائن الأعلى والذي يكون تحقيق إرادته هو القصد والمنتهى والغاية من الوجود البشري نفسه، والهدف من هذا التوجه الجمالي الإسلامي ما كان ليتحقق إلا من خلال التأمل بالإبداعات الفنية التي تقود الناظر فيها إلى بلوغ مغزى مفاده أن الله شديد الاختلاف عن خليقته، بحيث لا يمكن تمثيله ولا التعبير عنه وصفات الله دائما فوق ما يتصوره البشر.

أما المستوى الثاني والذي يعتبره القرآن مثال في، ويقصد به الأثر الحسي الجميل الذي تولده تلاوة القرآن، وأهم ميزة هي الصبغ الشعري الناجمة عن التكرار الصوتي أو الإيقاعي الكثيرة الورد في القرآن الكريم، فأواخر الكلمات ذات الإيقاع المتشابه داخل الآيات الذي يحتوي على تكرار الوحدات الإيقاعية والتي تضفي حيوية شعرية على هذا الأثر الأدبي. أما المستوى الثالث أن القرآن كان بالفعل تصوير فني دقيق، فقد استخدمه المسلمون في فن الزخرفة والنقش، وقد كان إدخال الآيات القرآنية في النقوش يجرى بكثير من العناية والإجلال والإتقان، وكان من نتيجة ذلك تطور فن الخط الجميل بين المسلمين. يساند إسماعيل الفاروقي في هذا الرأي الدكتور أدهم محمد حناش، بحيث يرى "أن الحضارة الإسلامية هي تعبير جمالي ينبثق من القرآن، والفنون الإسلامية هي فنون قرآنية."⁷

إن النظرية المقبولة في الفن الإسلامي هي تلك التي تعود بفرضياتها إلى عناصر نابعة من داخل الدين والثقافة الإسلامية لا من معطيات خارجية أجنبية فالقرآن الكريم كان له أثر في الفنون بقدر ما كان له أثر في مظاهر الثقافة الإسلامية الأخرى، إذا كان الدين ذو صلة بالفن، فالتصوف أحر أن يكون ذو صلة أوثق لأنه لب الدين حسب ما يرويه المتصوفة.

في التصوف الإسلامي، تعتبر حالة الفناء هي الهدف الأسى، الذي يسعى له كل صوفي، فهو يندرج في بداية الأمر بما يسمى الأحوال، حتى يبلغ ما يسمى باليقين، بحيث لا يصل إلى حال اليقين؛ إلا إذا جرب حالة الفناء التي يتم فيها الاتصال بالله، في الرسالة القشيرية ورد الفناء على أنه: "سقوط للأوصاف المذمومة."⁸

الفناء هو الهدف الأسى للصوفية حيث يتذوقون رحيق الحب الإلهي، ويستمتعون بالذائد الروحية، التي تنسهم كل ما يحيط بهم في دنياهم، وتشغلهم بالمحبيب الأعلى والفناء بتعبير الجرجاني: "فناءن: أحدهما ذوق والآخر خلقي، فالذوق هو عدم الإحساس بعالم الملك والمملوك بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق، والخلقي هو سقوط أوصافه المذمومة واستبدالها بالأوصاف المحمودة".⁹ يقسم القشيري الفناء إلى ثلاث مراحل: " فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق ثم فناؤه عن شهود فناؤه باستهلاكه في وجود الحق".¹⁰ ويقصد بذلك أن الفناء الروحي يمر على ثلاث مراحل: في الأول يفنى عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات ربه، وثانياً فناؤه عن صفات ربه ببقائه في ربه، والثالثة فناؤه عن فناؤه أي عدم ادراكه بأنه فان في الله عز وجل.

أساس الفناء الصوفي هو التأمل في عظمة الحق، وتركيز الشعور لمدة طويلة في هذا الموضوع، وتعطيل الإحساس عن كل موجود والترقي في هذا التأمل، حتى يمحى إدراك أن هناك تأملاً، وهناك موضوع الفناء الصوفي لدرجة بلوغ رتبة الاتحاد أي اتحاده بربه، ويشعر بأن هو والله شيء واحد.

تشبه حالة الفناء في التصوف حالة أخرى في الفنون، يطلق عليها الإلهام، وفي حين آخر تسمى الحدس، يعرفها فليكس كلاي: "إننا نطلق كلمة الإلهام على لحظات الإبداع الفجائية، وهي لحظات تنتابنا مصحوبة بأزمات انفعالية، وتبدو بعيدة عن العمليات العادية للعقل والشعور بعيدة عن حكم الإرادة، وسيطرتها غير متوقعة ومجيئها غير مرهون بدعائنا كالنوم والأحلام".¹¹

ويصفها دي لا كروا بأنه صدمة كالانفعال ويقول: "إن حال الملهم في لحظة الإلهام كحال من يجذب انتباهه فجأة، عندئذ يختل الاتزان لديه، ويمضي نحو اتزان جديد، وطبعاً أن توجد عندئذ حال وجدانية، قد تكون عنيفة".¹²

من خلال هذه التعريفات نصل إلى نسبة التطابق بين مفهومي الفناء والإلهام، في تعريف فليكس كلاي، ينص على أن الإلهام، يتم في حالة توقف جانب الحالة العقلية والشعورية العادية، وهي خاصية من خواص الفناء تشترك فيه تجربة الفناء والإلهام، كونهما تجربتين لا إراديتين، فالفناء الصوفي هبة من الله عز وجل، يهبها لمن يشاء، فالأحوال الصوفية مواهب لا مكاسب، في المقابل في التجربة الفنية نجد فليكس كلاي، يصرح: بأن الإلهام يتجاوز سيطرة الإرادة وحكمها، فهو يأتي بشكل غير متوقع ويظهر بطرق غير مفهومة، ومجيئها غير مرهون بدعائنا.

الدين بصفة عامة له علاقة بالفن فكلاهما نوع من أنواع الممارسات الروحية التي تقوم على العاطفة يرى هيجل: "أن مهمة الفن في المجتمع لا تكاد تختلف عن مهمة الدين والفلسفة من حيث أن كلا منهما تعبيري للروح أو المطلق".¹³

وعليه فيعد الفن أحد أبرز تجليات الحضارة الإسلامية، وكان للدين الإسلامي والتصوف دوراً محورياً في تشكيل أهم معالم الفنون، فالقرآن الكريم ما هو إلا تعبيراً فنياً، وأداة للتعبير عن التصورات

الدينية والروحية، وكان لتصوف طابع روحي ووجداني لتشكيل هوية الفنون الإسلامية باعتبارها مرآة عاكسة لعمق الحضارة الإسلامية، وهذا ما يعبر عن العلاقة بينهما.

3.2 أثر الصوفية في التجربة الفنية:

إن من يتأمل في الحياة الصوفية سيلحظ أنها قائمة على الذوق، الذي يعتبر أساس تفوق الفنون، فالصوفي الحقيقي هو من يستخرج المعاني في كل ما يقرأه وما يسمعه، إن الصوفيون يمتازون بنزعة ذاتية عميقة فحاولوا بقلوبهم أن يصلوا إلى مالا يتسنى للعقل والحواس بلوغه وقد كان الصوفية من أبرز المتذوقين للشعر، حيث تميز شعرائهم برقة الحس ودقة الذوق، يعتبر الشعر الديني هو أول منابع الأدب الصوفي الإسلامي، حيث بدأ هذا اللون الأدبي بالتطور مع انتصار الدعوة الإسلامية، فقد تميز الشعر الصوفي برمزيته الأسلوبية والموضوعية وقد جعل الشعر الصوفي من الحب أعظم تعبير له وأصبح شعارهم في الحياة لذلك قيل: "الشعر الصوفي عبر عن الحب أعظم تعبير واتخذة مذهبا في الحياة ودعا إليه وحرص عليه، وقد اتخذ الصوفيون الحب شعارهم في الحياة، ومذهبا إنسانيا يقبلون عليه ويذهبون إليه وانتهى بهم الحب إلى الحب الإلهي فاحترقوا بناره ثم وحدة الوجود فتأهوا في مسالكها".¹⁴

لقد كان الشعر الصوفي أداة يعبر بها الصوفيون عن الحقيقة والمعرفة الإلهية، فقد تأثر الشعر الصوفي بالشعر الديني في الإسلام فهو أول منابع الأدب الصوفي وظهر فيه شعر المدح بالرسول والإشادة بالإسلام، نذكر أشهر شاعر هو حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن قوله في مديح الرسول:

أغر عليه للنبوّة خاتم	من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي على اسمه	إذا قال في الخميس المؤذن اشهد
نبي اتانا بعد يأس وفترة	من الرسل والآثان في الأرض تعبد
فأمسي سراجا مستنيرا وهاجا	يلوح كما لاح الصقيل المهند ¹⁵

وكانت الغاية من هذه الأشعار هي الوعظ والذكر بالآخرة وترك ملذات الدنيا والاعتكاف بالعبادة والالتزام بها في سبيل مرضاة الله عز وجل، وهذا النوع من الشعر هو ما يطلق عليه بشعر الزهد، نذكر أبو العتاهية الذي كان شاعرا يظهر احتقار الدنيا وتعظيم الآخرة، وينظم الشعر في تزهيد الناس ومن شعر أبو العتاهية في تزهيد الدنيا:

حتى من يستفزني في الطمع	أليس لي بالكفن متسع
ما أفضل الصبر والقناعة	للناس جميعا لو أنهم قنعوا
وأخذع الليل والنهار	لأقوم في الغي قد رتعا
الله دار الدنى فقد لعبت	قبلي بقوم فما ترى صنعوا
ثروا أفلم يدخلوا قبورهم	شيئا من الثروة التي جمعوا

وكان ما قدموا لأنفسهم

أعظم نفعاً من الذي ودعوا¹⁶

إن حياة الصوفية كانت قائمة على المديح والغناء والموسيقى فهم اللذين صيروا إنشاء الشعر في المحافل العلنية، ولعل أفضل مثال عن ذلك هو الحوار الذي وضعه إخوان الصفا في فصل الأنغام الموسيقية، حيث قيل في هذا الحوار أنه جماعة من الحكماء، قد اجتمعوا في دعوة ملك من الملوك، فبدأ الموسيقار يغني لحناً مطرباً وقال له أحد الحكماء:

إن للغناء فضيلة يتعذر على المنطق إظهارها، ولم يقدر على إخراجها بالعبارة فأخرجها النفس لحناً موزوناً، فلما سمعتها الطبيعة استلذتها وفرحت وسرت بها فاسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها ودعوا الطبيعة لتأمل لزينتها لا تغرنكم.¹⁷

وقال آخر: "حرك النفس نحو قواها الشريفة، نحو الحلم والجود والشجاعة والعدل والكرم ورأفة ودع الطبيعة لا تحرك شهوتها البهيمية".¹⁸

فإخوان الصفا هنا يدعون إلى الغناء والموسيقى، التي تهدي النفوس إلى الخير، وتنفي عنها كل ما هو شر، أو يقودها إلى النفس الأمارة بالسوء، لذلك كانوا يدعون الموسيقار إلى تحريك النفوس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة، وإخوان الصفا وإن لم يصرحوا بذلك، فهم يستشهدون بكلام أهل التصوف.

ليس من المبالغة القول أن الصوفية تميزوا بين أهل الأدب والأخلاق بالتجويد في الموسيقى والغناء، حيث نظروا إلى هذه الفنون من منظور فلسفي عميق، وهم اللذين جعلوا من الشعر أساساً في المحافل العلنية، فهم يتصورون أن الغناء من التقاليد الدينية، فقد كان من الأنبياء من يعتمد على صوته في جذب الناس.

فالصوفية أقبلوا على الغناء، ولم يتشربوا إلا حسن النية وشرف القصد، وتفردت الطريقة المولوية استجابة العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجالس الذكر، الغناء الصوفي كان في البداية في حلقات الذكر وفي المناسبات الدينية كالمولد النبوي والتهليل في مناسبات دينية أخرى، وتركز في ذلك على ما أبدعه شعراء الصوفية.

الفنان المسلم الغاية من خوضه في غمار الفنون الجميلة، ليس تعبيراً عن هويته وعواطفه وشهوته؛ وإنما الغاية تتمثل في إبراز روح العقيدة الإسلامية فالعمل الفني الإسلامي لابد أن تتجلى فيه ثلاث قيم، أولاً قيمة نفعية: يعني أن يكون لهذا الفن قيمة ونفع للغير، لا يكون مجرد إبداع، وأن يكون ذو قيمة جمالية: وهذا تجلي لقانون أن الله جميل يحب الجمال، وقيمة معنوية: ونقصد بها القيمة الدينية، وهو فن يعبر عن الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات، ويكون مصدرها هو الموروث الفكري الإسلامي، ويكون التعبير عليها بالعبارة شكلاً وصوتاً وصورة كالغناء والرقص والموسيقى أو الإشارة بأشكال وألوان ويطلق عليها الرمزيات كفن العمارة.

3. فن العمارة والزخرفة في الحضارة الإسلامية:

1.3 فن الزخرفة:

لقد كان للمفاهيم الصوفية انعكاس على الفن الإسلامي من خلال إضافته طابع وجداني مميز الذي اهتم بالجواهر والبحث عن المطلق، لقد اعتمد الفن الإسلامي في تأسيس أنساق جمالية للأشكال الطبيعية والهندسية وتأليفها في أنظمة فنية متكاملة ذات أبعاد باطنية، من بينها لابد أن نذكر فن الزخرفة الذي يعد فنا روحيا يهدف إلى التوحيد بين ما هو عقلي وواقعي، أي علاقة جدلية بين الحسي والحدسي وبين المرئي واللا مرئي، هذه الزخارف التي نفذت في العمائر الإسلامية من المساجد والقصور وغيرها.

الزخارف الفنية في أشكالها وألوانها فهي إضافة إلى جماليتها الظاهرة، تعمل كوسيط لنقل أفكار الفنان المسلم كونها تنقل الأشكال بطريقة لا يمكن فصلها عن الواقع، الزخارف الإسلامية بتنوعها نجد أنها تعكس مفاهيم صوفية خاصة كقيم التأمل للوصول للحقيقة المطلقة، هذه الوحدات الزخرفية تعد سلسلة مترابطة ذات بناءات غاية في الدقة، غايتها الإفصاح عن الحقيقة الإلهية الماورائية. عناصر الزخرفة في الحضارة الإسلامية أربعة: "الصور الأدمية والحيوانية، الرسوم الهندسية والزخارف الخطية".¹⁹

بالنسبة للصور الأدمية والحيوانية، كان مكروها في الإسلام فكرهاية التصوير في الإسلام ترجع إلى عصر النبي، وأن أساسها إبعاد المسلمين عن الصور والتماثيل التي تقربهم من عبادة الأصنام، أما الرسوم الهندسية فقد كانت عنصرا أساسيا من عناصر الزخرفة، وهي مجموعة من التراكيب الهندسية ذات الأشكال النجمية المتعددة الأضلاع، ذاعت في مصر واستخدمت في الزخارف الخشبية والنحاسية وهي الصفحات الأولى المذهبة في المصاحف والكتب، وفي زخارف السقوف التي تعتبر من الوحدات الزخرفية الصوفية التي كان لها أثر على الفن الإسلامي، أيضا زخرفة الشرافة فهي ابتكار صوفي محض وهي نوع من الرسم الفني الذي يوضع على جوانب لوح كتابة القرآن الكريم فيحتفل بزخرفة اللوح. الزخارف النباتية، وهي عبارة عن استيحاء الطبيعة وتقليدها تقليدا صادقا أميناً، وأكثر الزخارف النباتية ذيوفا الأرابيسك وهي الزخارف المكونة من فروع نباتية وجذوع منثنية ومتشابكة ومتتابعة، وفيها موضوعات زخرفية مهذبة ترمز إلى الوريقات والزهور كازهار القرنفل وأغصان وثمار ورمال والورد البلدي، وكذلك أشجار السرو والطوبى، وبدأ ظهور هذا النوع من زخارف الأرابيسك في القرن التاسع ميلادي هذه الزخارف غالبا ما تنفذ على المساجد.

أما الزخارف الخطية، وهي حقا من ميزات الفنون الإسلامية فقد اتخذ الفنانون المسلمون من الكتابة عنصرا حقيقيا من عناصر الزخرفة، نذكر النصوص الكتابية من آيات قرآنية وأسماء الله الحسنى وقد نفذت هذه الكتابات بالخطين العربي والعثماني، وعليه فالزخرفة الإسلامية تتنوع بتنوع

استعمالها، سواء في زخرفة مخطوطة المصحف أو في تصميم السجاد أو في الزخرفة المتشابكة على الخزف أو البناية.

الفنان المسلم من خلال فنه هذا لا يحاكي الطبيعة محاكاة واقعية، وإنما يغوص في أعماقها إلى ما وراء الطبيعة المادية، فمثلاً يتحرر الصوفي من عالم الماديات والزهد عن الدنيا وملذاتها متجاوزاً هذا العالم بطاقته الروحية للقاء المتعالى، هذا ما يشعر به الفنان المسلم بانغماسه روحياً في تجاربه الفنية، بحيث تتحد ذاته مع الموضوع، إذن الفن الزخرفي ما هو إلا غاية روحية عظيمة يصل من خلالها الفنان نحو الحقيقة الإلهية، وهذا الفن ما هو إلا اقتران وتداخل للذوق الصوفي مع الذوق الجمالي.

2.3 مدخل لفن العمارة:

لابد من اعتبار أن العمارة دافع غريزي انساني فقد اعتدنا على التفكير في المبنى كمأوى ومسكن يعيش فيه الإنسان ومكان مقدس للعبادة وميادين وأبنية أخرى للترفيه، لهذا يظهر لنا أنه من الطبيعي أن نعمل على تحقيق هذا الإحساس، لذلك نجد "أرنست بيردن" يرى: "أن العمارة تشكيل وظيفي يؤدي أغراض إنسانية ومتطلبات حياتية بوسائل مكانية ومادية، وارتباط وثيق بحياة المجتمع وزمانه لذا فإنها تخضع لمؤثرات حضارية وزمانية واجتماعية واقتصادية، إضافة إلى خضوعها إلى عوامل طبيعية ومناخية.²⁰ وعليه فمنذ بدايات الإنسان وبمرور الزمن تطورت الأساليب الإنشائية في العمارة، فبرزت نظريات واختلفت الآراء حول وضع مفهوم دقيق لها حيث أن بعض الفلاسفة اليونانيين اعتبروها أم الفنون .

ويعد المعماري فيترو فيوس أول من قدم تعريف علمي للعمارة ويقول: "أنها علم يشتمل على مجموعة متنوعة من الدراسات والمعارف حيث تقوم باختبار نتائج الفنون الأخرى." ويعرفها الدكتور عرفان سامي: "هي الفن العلمي لإقامة عمائر تتوفر فيها الشروط الآتية: المنفعة، والمتانة، والجمال والاقتصاد، وتظهر براعة المهندس المعماري في تحقيق نوع من الانسجام وتوازن بين هذه العناصر الأربعة."²¹ وعليه فالعمارة بشكل عام ماهي إلا شكل من أشكال تلبية حاجيات الإنسان المختلفة.

هنا موضوعنا يختص بالحديث عن العمارة الإسلامية، وهذه التسمية تطلق على العمارة التي أنجزت في المناطق التي فتحها المسلمون وانتشر فيها الدين الإسلامي، فقام المعماري الإسلامي باستغلال تجارب المعماريين وصاغها وطورها على حسب احتياجات ديانته فقد كان للعامل الديني أثر كبير في صياغة وتكوين الفن المعماري الإسلامي .

يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذَا جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبُوءَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَتَخَذُونَ مِنْ سَهْلِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الأعراف: 74

هذه الآيات تعتبر دعوة موجهة للمعماريين للتأمل والتدبر في خلق الله تعالى والإبداع فيه، فالله تعالى جميل يحب الجمال والفنون بصفة عامة تعد مظهرًا من مظاهر الحضارة الإنسانية خاصة الإسلامية

منها، فهناك العديد من الفنون التي عرفت بها الحضارة الإسلامية كفن العمارة وفن الزخرفة وفن الخط العربي وغيرها من الفنون.

تطورت الحياة الفنية في العصر الإسلامي بشكل تدريجي، وقسمت إلى مراحل متتابعة، تمتد المرحلة الأولى: من القرن السابع إلى التاسع الميلادي، حيث استفاد العالم الإسلامي من قربه من العالم الآسيوي من الفن الإيراني، بالإضافة إلى التأثيرات الهلينية القادمة من البحر الأبيض المتوسط، في هذه المرحلة وضعت الأسس الأولى للفن الإسلامي، أما المرحلة الثانية، التي تعرف بعصر الخلافت وتمتد من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي، في هذه الفترة ظهرت ثلاث مراكز رئيسية العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة الأموية في الأندلس، خلال هذه المرحلة، بدأت بعض العناصر الزخرفية في الفن الإسلامي بالظهور، أما المرحلة الثالثة: ما بعد الخلافت بين القرنين 12 و15 م، وهنا بدأت المدارس الإسلامية بالظهور، فظهرت أنواع العمارة بأشكالها وأنواعها منها أبراج وقباب ومآذن. رابع مرحلة وهي الفن المغربي الأندلسي، وهنا عرف نوع من الاندماج ما بين الفن البربري والفن الشرقي خامس مرحلة العصر العثماني والممتد من القرن 16 إلى 18 م وانتشر فيها بجوار البحر الأبيض المتوسط، وانتشرت الأبنية الدينية خاصة التي بها قباب كبيرة ومآذن وغيرها. بصفة عامة اتسم تاريخ العمارة الإسلامية بوجه عام بثراء وفير، يجمع بين الأصل المحلي والتأثير الخارجي سواء كان إغريقي أو روماني أو فارسي وهذا راجع لتعدد الأساليب والأذواق.

بعد أن تعرفنا على أهم الأصول الفنية والعناصر الزخرفية التي استمد منها الفن الإسلامي مقوماته المادية، فكان دور الفنان المسلم هو المزج بينهما لذلك قيل: "الفن الإسلامي له خصائص تميزه عن غيره من فنون الحضارات، فهو فن قائم على التوحيد فلا مكان للوثنيات والأساطير".²² يبدو أن العمارة الدينية داخل المجتمعات اللاهوتية كانت المجال المناسب للفنان لإظهار قدراته الإبداعية وابتكاراته الفنية، ريمون بابر يعد العمارة المنبع الأصلي للفنون الأخرى والتي تجلت نشأتها حسب رأيه على جدران المعابد وذلك وفق الأقدمية التاريخية.

لقد كانت العمارة الإسلامية في بدايتها ذات طابع متشابه في كل الأقطار الإسلامية بما تحتويه من زخرفات معمارية، ولعل هذا ما يقصده جورج مارسيس GEORGES MARCAIS إلى الجزم بأن "الوحدة اللغوية تعد عنصر مهم في تكوين طابع معماري موحد".²³

إن العمارة في الحضارة الإسلامية في البداية كانت لها غاية تعبدية؛ فالجامع والمدرسة والرباط ودار الحديث، كلها تدخل ضمن نطاق وظيفة العبادة، ولا يكاد يخلو غيرها من المباني من قاعة للصلاة، ومع ذلك تؤدي وظائف أخرى غير تعبدية، وكان الفن المعماري أكبر دليل على تقدم الشعوب ورقمها. الطراز الإسلامي لم ينشأ نتيجة تفاعل ذكاء جماعة، وإنما نتيجة تفاعل حضارات، فقد بدأت كحرفة بسيطة ثم تطورت، حتى أصبح الفن المعماري الإسلامي يشمل أنواعا متعددة، منها فن عمارة المساجد وعمارة القصور وفن عمارة البيوت وكذلك فن عمارة المدارس.

3.3 أهم العماائر في الحضارة الإسلامية:

فن العمارة وهو من الفنون التي عرفت ازدهارا في العالم الإسلامي، فيعتبر المسجد من أهم المباني التي تمتاز بها العمارة الإسلامية، لقد كانت المساجد الأولى في الإسلام بسيطة في تخطيطها تناسب شعائر الدين، فكانت عبارة عن قطعة أرض تحاط بها أربعة جدران، لكن مع مرور الوقت تطورت عمارة المساجد وزادت فيها بعض الأجزاء التي يظن البعض من الباحثين أنها منقولة عن بعض أجزاء العماائر المسيحية المئذنة مثلا قد تكون منقولة عن أبراج الكنائس.

من العماائر الإسلامية نذكر أيضا الضريح أو المشهد، وهو البناء الذي كان يقام على رفات ولي أو إمام أو أمير ويسمى أحيانا قبة، وكان صاحب الضريح يدفن، ويوضع فوق قبره تركيبة من الحجر أو الأجر، وكانت الأضرحة في إيران أكثر انتشارا منها في سائر الأقطار الإسلامية.

ومن العماائر التي عرفها المسلمون أيضا نذكر "الخوانك" جمع "خنكاه" وهي كلمة فارسية، تطلق على البيوت التي شيدت في بعض ديار الإسلام منذ القرن الخامس هجري لإيواء الصوفية، الذين يختلون لعبادة الله، ثم انشئت في عهد الأتراك العثمانيين "التكايا" جمع "تكية"؛ لإيواء الدراويش المنقطعين للنسك والعبادة.

أما القصور الإسلامية فقد كانت معظمها آية في العظمة، وخاصة في الأندلس وبلاد المغرب، فقد كانت سعة في الجمال والدقة والزخارف التي تزيين جدرانها بالإضافة إلى الأرضية الجميلة من الفسيفساء والسقوف الجميلة.

استلهم المسلمون بناء القباب من البيزنطيين، واستخدموها بكثرة في الأضرحة، حتى أطلق الجزء على الكل، وأصبح اسم "القبة" يستخدم للإشارة إلى الضريح بأكمله، وقد انتشرت أنواع مختلفة من القباب في العالم الإسلامي، وتعتبر القباب الإسلامية الأكثر إبداعا موجودة في مصر وسوريا ويرجع أقدمها للعصر الفاطمي، من أشهرها نذكر قبة الشيخ عبد الله المنوفي بالقاهرة، ويرجع تأسيسه للقرن سابع وثامن بعد الهجرة، فقد كان ينسب إلى عبقرية الفنان الفلورنسي برونلسكي FILIPPO BRUNELLESCI، كما عرفت مصر القباب الخشبية، ولعل أجملها قبة الإمام الشافعي التي أنشأها السلطان الأيوبي سنة 1211 م، وهي قبة مكسوة بالرصاص، وتمتاز بإبداع زخارفها وبالشرفات المسننة في خارجها.

كما استلهم الفنان المعماري المسلم من الحضارات فنونها المعمارية فقد كانت أيضا العمارة الإسلامية محل إعجاب المعماريين الأجانب وخاصة فما يخص نظام الدوبلكس duplex ونظام التريبلكس triplex فقد استلهمها المعماري الفرنسي ليكور بوزيه وطبقها على عمارات مارسيليا فقد صرح هذه الأخير أنه قد استلهمها من وكالة الغوري في حي الغورية التاريخي في القاهرة والتي تعود إلى عام 1505 م في مصر الإسلامية.²⁴

أيضا كانت له علاقة وطيدة بالفنون والعمارة الإسلامية من خلال سفاراته بالمستعمرات الفرنسية خاصة في الجزائر، وقد أعلن في أكثر من مناسبة عن إعجابه بتلك الفنون حيث يصفها "بالاستقلال إلى اللون وصفاء الأشكال والهندسة المطلقة".²⁵ ويمكن إحصاء بعض المعالم التي مرت من تحت يديه ونذكر فكرة المتحف الحلزوني التي استحدثها عام 1935 والتي تتلخص في هيكلها الخرساني الموزع على مربعات موحدة المركز، مع ترك زيادة خارجية يمكن استثمارها في التوسعة المستقبلية للبناء وهي فكرة وردت بعمارة وادي مزاب بالجزائر، والمتمثلة في مساحتها التي تمتاز بما يدعى بالقبلة المفتوحة التي تلي المحراب والتي تسمح للجوامع أن يتسع مع مرور الوقت وبحسب مقتضيات الزيادة في عدد المصلين.

4.3 الزاوية كنموذج في العمارة الإسلامية:

الزاوية هي ذلك البناء الصغير الذي يشبه المسجد من حيث وجود محراب تؤدي فيه الصلاة، لكنها تختلف عن المسجد، بحيث أن الزاوية تجمع بين التربية والعبادة والتعليم، فهي تعمل على تربية المريدين وإيوائهم عند الحاجة وتعليمهم الدين الصحيح. وتعرف أيضا: "نوع من أنواع الأبنية الدينية لا مئذنة لها ولا منبر تضم ميضأة وغالبا ضريح مؤسسها تقام فيها الصلوات الخمس ماعدا صلاة الجمعة والعديد من مخططاتها أقرب إلى المدرسة أو المسجد وقد ألحقت بها قاعات لتأمين خدمات متعددة فهي مختصة لاستقبال المتصوفين المتنقلين عبر البلاد من زاوية لأخرى سعيا وراء المعرفة ورغبة في العطاء".²⁶

الزاوية في العمارة الإسلامية هي نوع من الأبنية الدينية، لا مئذنة لها ولا منبر وتضم ميضأة وغالبا ضريحا، مؤسسها هو أحد رجال الله الصالحين وبها قاعة تقام بها الصلوات الخمس، ولها مخطط يقترب منه للمسجد وقد ألحقت بالزاوية عدة غرف وقاعات خاصة لتأمين خدمة الزاوية.²⁷

إن عمارة الزاوية جمعت بين هندسة المسجد والمنزل في آن واحد فهي صغيرة الحجم وقليلة النوافذ بسيطة من حيث الزخرفة والجمال المعماري الفني، لذلك شكلها يوحى بالعزلة والتقشف، الزاوية من المنشآت المعمارية التي لم تكن موجودة قبل الإسلام فهي من المعاهد الأولى بعد مجيء الإسلام، فمن ناحية الألفاظ تعددت حسب الأقاليم منها كلمة "خانقاه" وهي كلمة فارسية وتعني البيت وقد ظهرت في العمارة الإسلامية في حدود 400هـ لتحلي الصوفية فيها للعبادة وطاعة الله، ثم انتقلت إلى إيران ومصر وسوريا والعراق في حوالي القرن الخامس هجري.

وعرف بعدها ما يطلق عليه "بالتكية"، ويرجح أنها مأخوذة من الفعل اتكأ بمعنى استند، والتكية عبارة عن مسجد صغير محاط بغرف الدراويش من أبواب الصوفية الذين كرسو حياتهم للعبادة والزهد والتقشف.

أما في بلاد المغرب نجد ما يعرف "بالرباط"، وهو عبارة عن مركز ثقافي حربي، فهو حربي على حسب بنيته بحيث يشبه القلعة، وثقافي من حيث تعليم المقيمين المرابطين للثقافة الإسلامية والمعارف

الدينية، هناك تداخل كبير بين الأربطة والزوايا بحيث يقول الأستاذ جورج مارسين: "الزوايا عبارة عن أربطة فقدت وظيفتها العسكرية."²⁸ فالأصل أن الزاوية لم تكن مجرد مكان للعبادة فقد كانت ملجأ للمجاهدين في الثورة الجزائرية والأمثلة عن ذلك كثيرة.

تميزت الزاوية في مجملها بتنوع مخططاتها وتكويناتها المعمارية فمن العناصر المعمارية التي نجدها في الزوايا نذكر البعض والأهم منها:

المداخل: أو المدخل وهو الفتحة أو الباب الذي يدخل منه إلى المنزل، فقد لعبت المداخل دوراً هاماً في تكوين مختلف وجهات العمائر الإسلامية وخاصة القصور منها، فقد استخدمت شتى العناصر المعمارية والفنية كقفورات الأقواس الملونة والفسيفساء والرخام والحليات الحجرية وغيرها، وكان أول مدخل واضح وصريح في العمارة الدينية في مصر، وهو المدخل الغربي الواقع في محور الجامع الحاكم، والذي يتشابه في تصميمه مع مدخل جامع المهديّة بتونس.

المحاريب: وهي نصف أسطوانة أو التجويف الجداري الذي يعلو رأسه نصف كرة تسمى الطاقية والمحراب، هو قبلة المسجد ومقام الإمام وهذه الخاصية المعمارية، تشترك فيها الزوايا مع المسجد.

القباب: القبة هي أحد الأشكال المعمارية المميزة التي استخدمت في تغطية أسقف الكثير من المباني عبر العصور، تتميز بشكلها الدائري المقعر من الداخل والمقرب من الخارج، وهي تقريبا نصف كرة، يعتقد أن القباب الأولى نشأت في بلاد ما بين النهرين والشرق الأدنى، كما أن العمارة الرومانية والبيزنطية استخدمتها في تصميم المباني، لتنتشر لاحقاً في المساجد أمام المحراب، فنراها في الجزء الأوسط من الرواق كما يتوج في أعلى القبة هلال، وهو يرمز للدولة الإسلامية، فأصبح شعاراً لها، فالقباب شكل معماري قديم، أدخله المسلمون في بناء المساجد، ثم انتقل إلى البيوت والقصور والأضرحة والزوايا الصوفية أيضاً.

ظهرت في البداية في آسيا، ثم انتقلت إلى الفرس والرومان، وقد تسنى للمسلمين نقلها إلى المغرب

العربي والأندلس "ونجد مثلاً جميلاً اليوم لمدينة الوادي وادي سوف في شرق الجزائر التي تشكل القباب

العنصر الأساسي في تسقيف حجراتها."²⁹ ولعل الغاية منها أولاً هي زيادة كمية النور داخل المساجد وزيادة

التهوية داخل المسجد، بالإضافة إلى تضخيم صوت الإمام، القباب في الحضارة الإسلامية كانت لها رؤية

ورمز روحاني خاص، ولم تكن حلاً بيئياً أو مناخياً أو إنشائياً، فقد كانت استعمالها مميزة وفريدة، فهي

ترمز لشيء مقدس، وتعتبر قبة الصخرة بالبيت المقدس أقدم مثال للقبة في العمارة الإسلامية والتي بناها

الخليفة الأموي عبد المالك بن مروان عام 72هـ / 691م.

4. خاتمة:

في ختام هذه الدراسة نصل إلى مجموعة من النتائج:

- أن الفن الإسلامي عرف درجات ارتقاءه بعد مجيء الإسلام، بحيث اتصل العالم الإسلامي بالأمم والحضارات الأخرى وتأثر بالفنون الخاصة بهم سواء كانت مسيحية أو هندية أو غيرها، وبما أن التصوف هو لب الدين، لا يسعنا إلا التطرق إليه والحديث عن تأثيره وتأثره بالفن.
- هذا الفن عرف العديد من المسميات فهناك من أطلق عليه الفن المغاربي نسبة للمغرب العربي، وهناك من أطلق عليه اسم الفن المحمدي نسبة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهناك من أطلق عليه اسم الفن العربي نسبة للدول العربية؛ لكن كل تسمية تخص مكان عن آخر إلى أن وصلوا بأن التسمية الأحق هي الفن الإسلامي.
- هناك تداخل كبير بين كل من التصوف والفن وخاصة في عمليتي الفناء والإلهام، كونهما نوع من الممارسات الروحية فلا يمكن إنكار أثر الصوفية في التجربة الفنية ونذكر منها ما قدمه المتصوفة من الآثار الشعرية والموسيقى والغناء، بحيث أصبحت هذه الفنون تلازم الصوفية وأكثر ما يعرفون به بحيث لهم دواوين شعرية وكانت جلساتهم عبارة عن غناء ومديح بما يرضي الله.
- لا يمكن أن نتحدث عن الفنون الإسلامية وألا نتحدث عن الزخرفة التي تميزت بأنواعها، سواء كانت نباتية أو حيوانية أو آدمية أو هندسية أو خطية التي وضعت أشكالها على المباني الإسلامية سواء كانت قصور أو مساجد لتمييز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى.
- لا يفوتنا أن نذكر جانباً آخر من جوانب الفن، ألا وهو فن العمارة، لم تنشأ العمارة بكل ما تحمل من مبادئ وأساليب متنوعة من لا شيء، ولكنها أخذت تتكون وتتبلور شيئاً فشيئاً عبر العصور والمراحل التاريخية التي قطعها الإنسان الذي كان يحاول دوماً تصميم مسكن وفق ما يتوافق مع احتياجاته، وبمرور الزمن تطورت الأساليب الإنشائية المعمارية، فمن الطين وجذوع الأشجار انتقل الإنسان إلى استخدام الحجر وبعد تعلم النحت عليها إلى أن ابتكر وسائل إنشائية أكثر تعقيداً. إلى أن وصل إلى ما شهدناه سابقاً بحيث يعتبر هذا الفن من الفنون المعروفة بالعالم الإسلامي وأكثرها ازدهاراً، سواء كانت مساجداً أو قصوراً أو مبانيها، فقد كانت من مميزات الحضارة الإسلامية، فمن أهم العماثر نذكر الخوانك التكايا الزوايا والقباب وغيرها من الفنون المعمارية التي ميزت العمارة الإسلامية، صحيح أنها لم تكن إنتاج عربي إسلامي بحت كونها تأثرت بالأمم الأخرى لكنها تعتبر رمز من رموز الحضارة الإسلامية.

5. الهوامش:

- ¹ زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، ط1، ، 2014، ص 09.
- ² IDHAM MOHAMMED HANASH, THE THEEORY OF ISLAMIC ART, THE INTERNATIONAL INSTITUT OF ISLAMIC THOUGHT, LONDON, 2017, P20
- ³ محمد حسين زكي ، فنون الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، 1984، ص 01.
- ⁴ زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، ص13 .
- ⁵ خفاجي محمد عبد المنعم ، الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط1، د.س، ص ص 165 175 .
- ⁶ الفاروقي اسماعيل راجي، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1977، ص 247.
- ⁷ IDHAM MOHAMMED HANASH, THE THEEORY OF ISLAMIC ART, P 47
- ⁸ قشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تخ: الإمام عبد الحلیم محمود ومحمود عبد الشریف، مؤسسة الشعب للصحافة والطباعة، القاهرة، د.ط، 1989، ص 148.
- ⁹ سرور طه عبد الباقي ، الحسين بن منصور الخلاج شهيد الحب، مؤسسة هنداي القاهرة، د.ط، 2014، ص 145
- ¹⁰ قشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص 149
- ¹¹ سراج حسان فائز ، أروقة العمارة فن وجمال وحضارة، مركز أبحاث، د.د، ط2، 2020، ص 72.
- ¹² المرجع نفسه، ص 72
- ¹³ المرجع نفسه، ص 76
- ¹⁴ خفاجي محمد عبد المنعم ، الأدب في التراث الصوفي، ص 177
- ¹⁵ فروخ عمر، التصوف في الإسلام، مكتبة منية بيروت، ط1، 1948، ص 96
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص 97 إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، ط1، 2018.
- ¹⁷ إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، ط1، 2018، 198.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 198
- ¹⁹ زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، مرجع سابق، ص 27
- ²⁰ المالكي قبيلة فارس، تاريخ العمارة عبر العصور، دار المناهج للنشر والتوزيع الجزائر، ط2، 2011، ص 16.
- ²¹ معروف بلحاج ، العمارة الإسلامية في بني مزاب، قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013، ص 16 .
- ²² سراج حسان فائز ، أروقة العمارة فن وجمال وحضارة، ص16.
- ²³ التويني علي ، العمارة الإسلامية سجلات في الحداثة، منشورات الإختلاف الجزائر، ط1، 2009، ص 19.
- ²⁴ معروف بلحاج ، العمارة الإسلامية في بني مزاب، ص 147.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 148.
- ²⁶ غالب عبد الرحيم ، موسوعة العمارة الإسلامية، د.د، بيروت، ط1، 1977، ص 313.

²⁷ بن بلة خيرة ، عزوق عبد الكريم ، وبوزينة سعيد، زوايا ومدارس الجزائر دراسة فنية معمارية، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، ط1، 2014، ص 12.

²⁸ المرجع نفسه، ص 16.

²⁹ المرجع نفسه، ص 276.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، 2018.
- بن بلة خيرة ، عزوق عبد الكريم ، وبوزينة سعيد، زوايا ومدارس الجزائر دراسة فنية معمارية، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، ط1، 2014.
- الثويني علي ، العارة الإسلامية سجلات في الحداثة، منشورات الإختلاف الجزائر، ط1، 2009.
- حسان عبد الحكيم ، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث هجري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1945.
- خفاجي محمد عبد المنعم ، الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط1، د.س.
- زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، 2014.
- سراج حسان فائز ، أروقة العارة فن وجمال وحضارة، مركز أبحاث، د.د، ط2، 2020 .
- سرور طه عبد الباقي ، الحسين بن منصور الحلاج شهيد الحب، مؤسسة هنداوي القاهرة، د.ط، 2014،
- غالب عبد الرحيم ، موسوعة العارة الإسلامية، د.د، بيروت، ط1، 1977.
- الفاروقي اسماعيل راجي، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1977.
- فروخ عمر، التصوف في الإسلام، مكتبة منمية بيروت، ط1، 1948
- القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تح: الإمام عبد الحليم محمود ومحمود عبد الشريف، مؤسسة الشعب للصحافة والطباعة، القاهرة، د.ط، 1989.
- المالكي قبيلة فارس، تاريخ العارة عبر العصور، دار المناهج للنشر والتوزيع الجزائر، ط2، 2011.
- محمد حسين زكي ، فنون الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، 1984.
- معروف بلحاج ، العارة الإسلامية في بني مزاب، قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013 .

■ THE INTERNATIONAL , THE THEEORY OF ISLAMIC ART,IDHAM MOHAMMED HANASH
P20, 2017, LONDON,INSTITUT OF ISLAMIC THOUGHT